رسائل تلّغرافيّة

(٩)

والبلدُ الطَّيِّبُ يخرجُ نباتُه بإذن ربِّه

بَلَّغَهُ

ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، **أما بعد:**

فقد قال العليم العزيز الحكيم في كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

هذه آيات بيّنات يدلّنا رب العزة فيها علىٰ صفة عظمة القرآن العظيم وبركته للعالمين، كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص: ٢٩].

ومن بركته: بيان الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، والرشاد من الغيّ، والعلم من الجهل، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

- أما الآية التي أقمتُ عليها هذه الرسالة فهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

قال شيخ المفسرين إمام التفسير بالمأثور من الكتاب والسنة وأقوال السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة من بعدهم، وهو كتابه المسمّىٰ بـ«جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٨/ ٢١٩-٢٢٠) قال:

«يقول تعالىٰ ذكره: والبلد الطيبة تربته العذبة مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل اللَّه الغيث وأرسل عليه الحيَا بإذنه طيِّبًا ثمره في حينه ووقته، ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ فَرَدُؤَت

تربته وملحت مشاربه ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ يقول: إلا عَسِرًا في شدّة.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يقول: كذلك نُبيّن آيةً بعد آية، ونُدْلِي بحجَّة بعد حجّة، ونضْرب مثلًا بعد مَثَل، لقوم يشكرون اللَّه علىٰ إنعامه عليهم بالهداية وتَبْصِيره إيّاهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم من أمرهم باتباعه، وتجنُّبهم ما أمرهم بتجَنُّبه من سُبل الضلالة.

وهذا مثل ضربه اللَّه للمؤمن الفاسق؛ فالبلد الطيّب الذي يخرج نباته بإذن ربه مَثَلُ المؤمن، والذي خَبُث فلا يخرج نباته إلا نكدًا مَثَلُ الفاسِقِ.

وبنحو الذي قُلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذِكْرُ مَنْ قال ذلك:

[١٤٧٠٤] حدثني... عن مجاهد قال: كل ذلك من أرض السِّباخ وغيرها مثل آدم وذريته فيهم طيب وخبيث...

[١٤٧٠٨] حدثني... عن السُّدِّيِّ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ هي السبخة ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتها ﴿إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ والنكد: الشيء القليل الذي لا ينفع، كذلك القلوب لمّا نزل القرآن، فالقلب المؤمن لما دخله القرآن آمن به، وثبت الإيمان فيه، والقلب الفاسق لمّا دخله القرآن لم يتعلّق منه بشيء ينفعه، ولم يثبت فيه من الإيمان شيء إلا ما ينفع، كما لا يخرج هذا البلد إلا ما لا ينفع من النبات.

[١٤٧٠٩] حدثني... عن مجاهد قال: الطيّب ينفعه المطر فينبت، والذي خَبُثَ السباخ لا ينفعه المطر، لا يخرج نباته إلا نكدًا، قال: هذا مثل ضربه اللَّه لآدم وذريته كلهم، إنما خُلِقوا من نفس واحدة، فمنهم من آمن باللَّه وكتابه فطاب، ومنهم من كفر باللَّه وكتابه فخبُث». اهـ

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٦٧) عند نفس الآية:

«معناه التشبيه، شبّه اللَّه تعالىٰ السريع الفهم بالبلد الطيّب، والبليد بالذي

خبُث، قاله النحاس.

وقال الحسن البصري: هذا مثل القلوب، فقلبٌ يقبل الوعظ والذِّكرىٰ، وقلب فاسق ينْبُو عن ذلك، قوله: ﴿نَكِدًاۚ﴾ نصبٌ علىٰ الحال، وهو العَسِيرُ الممتنع عن إعطاء الخير». اهـ

قلت: وفسَّر ابن كثير الآية بما رواه البخاري ومسلم.

فقال الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٨١):

«أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾.

وقال البخاري [في «صحيحه» (٧٩)]: حدثنا... عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَثَل ما بعثني اللَّه به من الهدىٰ والعلم، كمَثَل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها نقية قَبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع اللَّه بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ، إنما هي قِيعان لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به، فعَلِمَ وعلّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ اللَّه الذي أُرسلت به**» رواه مسلم [٢٢٨٢]». اهـ

قلت: وهذا أجْود ما قيل في الآية بما قاله رسول اللَّه ﷺ.

قال الشيخ السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٩٢):

«قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨]؛ أي: بإرادة اللَّه ومشيئتِهِ، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء؛ حتىٰ يأذن اللَّه بذلك، ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: نُنَوِّعها ونُبيِّنها ونضربُ فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون اللَّه؛ بالاعتراف بنعمه والإقرار بها، وصرفها في مرضاة اللَّه، فهم الذين ينتفعون بما فصّل اللَّه في كتابه، من الأحكام والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها أكبر النعم

الموصّلة إليهم من ربّهم، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيبتدرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحَيَا، فإن القلوب الطيّبة حين يجيئها الوحي تقبلُه وتعلمه وتنبت بحسب طيب أصلها وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلًّا قابلًا، بل يجدها غافلة مُعرضة أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر علىٰ السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثّر فيها شيئًا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]». اهـ

وقال النووي في «شرح مسلم» (١٥/ ٤٨) في معنىٰ الحديث الذي ذكره ابن كثير في تفسير الآية:

أما معاني الحديث ومقصوده: فهو تمثيل الهدىٰ الذي جاء به النبي ﷺ بالغيث، ومعناه: أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس.

فالنوع الأول من الأرض: ينتفع بالمطر فيحيىٰ بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ فينتفع به الناس والدّواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس، يبلغه الهدىٰ والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به، ويعلّمه غيره فينتفع وينفع.

والنوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس، لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل، فهم

يحفظونه حتىٰ يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم، فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

والنوع الثالث من الأرض: السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع به غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس، ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم، واللَّه أعلم.

وفي الحديث أنواع من العلم منها: ضرب الأمثال، ومنها فضل العلم والتعليم وشدة الحثّ عليها، وذم الإعراض عن العلم». اهـ

- **أحوال القلوب مع العلم النافع وعلاقته بالآية والحديث والحنيفية السَّمْحة:**

ذكر شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٣١٥، وما بعدها) الحديث المذكور في «الصحيحين» فقال:

«ثم القلب للعلم كالإناء للماء، والوعاء للعَسَل، والوادي للسيل، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقال النبي ﷺ: «**إن مثل ما بعثني اللَّه به من الهدىٰ والعلم...**»....

فإن القلب إذا كان رقيقًا ليّنًا كان قبوله للعلم سهلًا يسيرًا، ورسخ العلم فيه وثبت وأَثَّرَ، وإن كان قاسيًا غليظًا كان قبوله للعلم صعبًا عسيرًا.

ولابد مع ذلك أن يكون صافيًا زكيًّا سليمًا، حتىٰ يزكو فيه العلم ويثمر ثمرًا طيّبًا، وإلّا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم، وكان كالدغل في الزرع إن لم يمنع الحَبَّ من أن ينبت، مَنَعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بيّن لأولي الأبصار.

وتلخيص الجملة : أنه إذا اسْتُعْمِلَ في الحق ، فله وجهان :

وجهٌ مُقبل علىٰ الحق ، ومن هذا الوجه يقال له : وعاء وإناء ؛ لأنه يستوجب ما يُوعَىٰ فيه ويوضع فيه ، وهذه الصفة صفة وجود وثبوت .

ووجهٌ معرض عن الباطل ، ومن هذا الوجه يقال له : زكي سليم وطاهر ؛ لأنّ هذه الأسماء تدل علىٰ عدم الشّرّ وانتفاء الخبث والدَّغَل ، وهذه صفة عدم ونفي .

وبهذا يتبيّن أنه إذا صرف إلىٰ الباطل فله وجهان كذلك :

وجه الوجود : أنه منصرف إلىٰ الباطل مشغول به .

ووجه العدم : أنه معرض عن الحق غير قابل له ، وهذا يبيّن من البيان والحسن والصدق ما في قوله :

إذا ما وضعت القلب في غير موضع ... بغير إناء فهو قلب مُضَيَّع

فإنه لما أراد أن يبيّن حال من ضيّع قلبه ، فظلم نفسه بأن اشتغل بالباطل وملأ به قلبه ، حتىٰ لم يبق فيه متَّسع للحق ، ولا سبيل له إلىٰ الولوج فيه ذكر ذلك منه ، فوصف حال هذا إذا ما وضعت القلب بوجهيه ، ونعته بمذهبيه ، فذكر أولًا وصف الوجود منه فقال :

إذا وضعت القلب في غير موضع

يقول : إذا شغلته بما لم يُخلَق له فصرفته إلىٰ الباطل حتىٰ صار موضوعًا فيه ، ثم الباطل علىٰ منزلتين :

إحداهما : تشغل عن الحق ولا تعانده ، مثل الأفكار والهموم التي في علائق الدنيا وشهوات النفس .

والثانية : تعاند الحق وتصدّ عنه ، مثل : الآراء الباطلة والأهواء المردية من النفاق والبدع وشِبْه ذلك ، **بل القلب لم يُخلق إلّا لذكر اللَّه** ، فما سوىٰ ذلك فليس

موضعًا له.

ثم ذكر ثانيًا وصف للعدم فيه، فقال: إذا ما وضعت قلب في غير موضع فقد يُشغل بالباطل، ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق، وينزل إليه الذكر والعلم الذي هو حق القلب، فقلبك إذًا مضيّع من وجهي التضييع.

وإنما خرج الكلام في صورة اثنين بذكر نعتين لشيء واحد، كما جاء نحوه في قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، قال قتادة والربيع: هو القرآن: فرَّق فيه بين الحلال والحرام، والحق والباطل...

والقلب لمّا كان يقبل الذكر والعلم فهو بمنزلة الإناء الذي يوضع فيه الماء، وإنما ذكر في هذا البيت الإناء من بين سائر أسماء القلب؛ لأنه هو الذي يكون رقيقًا صافيًا، وهو الذي يأتي به المستطعم المستعطي في منزلة البائس الفقير، ولما كان ينصرف عن الباطل فهو زكي وسليم فكأنه اثنانِ.

وليتبيّن في الصورة أن الإناء غير القلب فهو يقول: إذا وضعت قلبك في غير موضع.

وهو الذي يوضع فيه الذكر والعلم، ولم يكن معك إناء يُوضع فيه المطلوب...

وإذا تأمل من له بصيرة بأساليب البيان وتصاريف اللسان، وجد موقع هذا الكلام من العربية والحكمة كليهما موقعًا حسنًا بليغًا، فإن نقيض هذه الحال المذكورة: أن يكون القلب مقبلًا علىٰ الحق والعلم معرضًا عن غير ذلك، وتلك هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، فإن الحَنَف هو: إقبال القدم وميلها إلىٰ أختها، فالحنف الميل عن الشيء بالإقبال علىٰ آخر، فالدين الحنيف هو الإقبال علىٰ اللّه وحده، والإعراض عمّا حواه، وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق، والكلمة

الطَّيّبة: «لا إله إلّا اللَّه»، اللهم ثبتنا عليها في الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلّا باللَّه». اهـ

قلت: وهناك صلة بين كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والحديث والآية المقام عليهما المقالة، وبين قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٦١):

«قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: لُبٌّ يعي به، وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقّله وتفهّمه بلُبّه، وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدّث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ شاهد القلب، وقال الضحاك: العرب تقول: ألقىٰ فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد، يقول: غير غائب، وهكذا قال الثوري وغير واحد». اهـ

وقال القرطبي نحو ذلك ثم قال في «جامعه» (١٧/ ١٩):

«قال يحيىٰ بن معاذ: القلب قلبان: قلبٌ محتشٍ بأشغال الدنيا، حتىٰ إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشىٰ بأحوال الآخرة حتىٰ إذا حضر أمر من أمور الدنيا، لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة». اهـ

أقول:

- **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه:**

ونباتُه: أهله، والمراد: صلاح الناس في دينهم وعقيدتهم وهَدْيهم وأخلاقهم وقلوبهم وعملهم، صلاح النفس والروح والصدر والضمير، صلاحُ العلم والفهم والفقه والإدراك والوعي والتصور، صلاح الأمور والشئون والأحوال، ولا يكون ذلك كذلك إلا لمن كان له قلب حيّ يعقل ويتدبّر ويتفهّم ما أراده اللَّه ورسوله من

الخلق، وإلّا لكانت كل هذه الأمور المذكورة ﴿نَكِدًاۚ﴾ فاسدة لا نفع فيها ولا خير، ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، والحمد للّه رب العالمين.

بلّغه

الفقير إلى ربِّه

ابن الكيَّال